العقيدة الإسلامية (النص العقل والقلب)

نحو تكامل معرفي

د. محمد يعيش

كلية العلوم الإسلامية – جامعة الجزائر 1

ملخص البحث:

يتناول هذا المقال إشكالية الخلاف الحاصل بين المدارس العقدية بسب تغليب كل طرف لمنهج استدلالي على آخر تماشيا مع ظروف الزمان والمكان التي كانت محيطة بواقع علماء هذه المدارس، وما أفرز ذلك عبر التاريخ من صراع محموم وخصام غير مبرر في كثير من الأحيان، وهو ممتد إلى حد يوم الناس هذا.

ولما كان زماننا غير زمانهم ومشكلاتنا تختلف عن مشكلاتهم، فمن الضرورة العقدية والحضارية اليوم أن تتوحد الجهود وتصفى النفوس، استنادا إلى مسلك بديل وهو منهج التكامل المعرفي، يراعى فيه ابتداء النص باعتباره المصدر الحصري للمعرفة العقدية، ويعطى للعقل تلك المترلة التي أولاه إياها القرآن الكريم، دون تفريط أو إفراط، ولا يغفل القلب الذي يرتقي بالاعتقاد بوصفه جملة من التصورات إلى مراتب عليا من الإيمان الحقيقي الذي يؤدي الوظائف التي من أجلها شرع هذا الدين.

مقدمة:

تمثل العقيدة الإسلامية في حياة الإنسان الأساس الذي تنطلق منه كل تصوراته للكون والحياة، فهي ذات وجود مركزي وتأثير متعدد الأبعاد، ولا تنفك أي منظومة في تاريخ الحضارة عن هذا الفاعل القوي.

فهي الضامن لسلامة السلوك وإليها يرجع الأمر عند أي خلل أو زلل، وتمكن العقل من المراجعة الدائمة عند الاشتباه في الأمور أو الوقوع في المزالق.

وقد أحيطت العقيدة في أسسها بسياج صلب عصي على الاختراق وحماية مؤمنة تواجه به عاديات الزمان.

فالسياج الأول: هو النص الذي تولى المولى تبارك وتعالى حفظه، قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾

والنص، هو كتاب الله عز وجل وسنة نبيه ﷺ ، وهذان المصدران هما الأساس في المعرفة العقدية، ولا يتصور مطلقا وجود مصادر أخرى لهذه المعرفة خارج نطاق النص، وكل ما تم إيراده من آراء بوصفها مصادر من مصادر المعرفة العقدية، كالإجماع مثلا، كلها مقيدة بالنص خادمة له.

أما السياج الثاني فهو العقل، الذي كرم الله به الإنسان وميزه عن سائر الخلق والعقل معجزة من معجزات الله.

والعقل، هو تلك القوة التي أودعها الله في خلقه، وهي الوسيلة التي نصل بها إلى المعرفة العقدية، ولا يمكن إطلاقا إلغاء هذه الوسيلة بوصفها أداة، كما لا يمكن

ازدراؤها بوصفها خلق لله عز وجل، وأي محاولة في هذا الاتجاه تعتبر مخافة لقوانين العالم ونواميسه.

والسياج الثالث هو القلب، وهو مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وعلمه نور يقذفه الله في قلب من يحب من عباده الصالحين.

والقلب هو محل الاعتقاد، وبه يكتشف المرء ذاته و معتقده، يحب ويكره، فيحب الإيمان كما يكره الكفر، ويستشعر به حلاوة الإسلام وعظمته، ولهذا السبب ربط الرسول عليه الصلاة والسلام صلاح الجسد بصلاح القلب، وفساده بفساده.

كما دبجت للعقيدة الإسلامية المناهج العلمية الرصينة وبمدارس مختلفة بنيت على أصول ومبادئ، رجالها أعلام كبار، حافظوا على ديمومتها على مر التاريخ فأصبح من الصعب النيل من صفائها وقدسيتها.

وإذا ما لاحظت في فترات متقطعة في التاريخ الإسلامي من زيغ أو ضلال فمرده إلى هوى مطاع وشهوة جاه وسلطان أو لذة مال أو فساد طبائع و أخلاق، فإنك لتجد أكثر المارقين عن الدين الطاعنين فيه، من الحشاشين الزنادقة أتباع المذاهب الباطنية ممن لا دين لهم.

فالعقيدة قواعد وقواعدها أصول وبوصفها أصولا فإنها حاكمة على كل ما يليها من فروع، وقد تجاوزت بدراساتها المعمقة إلى أن لامست علوما أخرى حتى أضحت تتحكم فيها أيضا، فأصبح علم الكلام وما يحتويه من مباحث علما نظريا بحتا، ينظم المقدمات ويستخلص النتائج كما تصنع ذلك الآلات الحاسبة في عصرنا هذا، وقد سارت الاستدلالات جميعا في هذا العلم الخطير، فتكلمت عن الله سبحانه وتعالى وعن صفاته وانتهت إلى حقائق جيدة، يستريح إليها العقل الحصيف

بيد أن الإسلام في تكوينه للعقيدة يخاطب القلب والعقل ويستثير العاطفة ويوقظ الانفعالات النفسية مع إيقاضه للقوى الذهنية.(1)

فمن العدل أن نعترف لأصحاب المذاهب على اختلاف مناهجهم أنهم لم ينتحلوا العبث مسلكا، بل كانوا أهل علم وتقوى،سارت استدلالاتهم جميعا بهدف خدمة الإسلام والدفاع عنه، وما تصانيفهم التي تركوها إلا خير دليل على ذلك، فهي شاهدة على جهودهم الخيرة، فمن الحيف ونكران الجميل أن ننتقص من شأنهم أو نزدري ما قدموه للأمة الإسلامية من عمل.

و من المهم أيضا أن نشير إلى أن عقيدة التوحيد هي عقيدة لوحدة المسلمين و هي السبيل لقوتهم ومهابتهم بين الأمم، فلا نتصور إطلاقا أن تكون سببا لتفرق المسلمين وضعفهم وهوانهم بين الناس.

ويمكن بحث هذا الموضوع من خلال العناصر التالية:

أولا: مفهوم العقيدة.

ثانيا: العقيدة والنص.

ثالثا: العقيدة والعقل.

رابعا العقيدة والقلب.

خاتمة:(المشكلة والحل)

أولا: مفهوم العقيدة

العقيدة مأخوذة من العقد والعقد هو الجمع بين أطراف الشيء ويستعمل ذلك في الأجسام الصلبة وعقد الحبل وعقد البناء وتوسع في العقد فاستعمل في المعاني كعقد البيع وعقد النكاح كأنه ربط بين أجزاء ويقال عاقدته وعقدته وتعاقدنا وعقدت يمينه.

وكلمة العقيدة لم ترد في القرآن الكريم بلفظ عقيدة لكن وردت مادة العقيدة في عدة مواضع في القرآن الكريم [2].

والعقيدة التي هي محل بحثنا هي الأمر الذي تصدق به النفس ويطمئن إليه القلب ويكون يقينا عند صاحبه لا يمازجه شك ولا يخالطه ريب.[3]

فأولى مراتب الاعتقاد هو التصديق، والتصديق هنا لا يعني إطلاقا القيام بالعمل، ولا يعني تنفيذ التكليف،و إنما يكفي فقط أن تقر بأن ماجاء به القرآن هو من عند رب العامين، وإن ما نقرؤه من عقائد فيه، هي عقائد صادقة صحيحة لا غبار عليها، وتصديق نبوة محمد عليه الصلاة والسلام، فالرسول في بداية دعوته كان يدعوا الناس حتى يصدقوه بأنه نبي مرسل من الله عزوجل، فإذا ما صدقوه، عملوا بمقتضى ما جاء به من أحكام عقائدية وشرعية.

و لا يكفي هنا التصديق، بل يجب أن يرافق ذلك بالاطمئنان القلبي، لأن القلب كما ذكرت في المقدمة هو محل الاعتقاد، فعندما يطمئن القلب تتحرك الجوارح بالعمل الإيماني الصادق، فقد تجد في الغالب أن بشرا لا ينفذ عملا بما يصدق، فقط لأن قلبه غير مطمئن إليه، وهذه طبيعة جارية في أكثر الناس.

وشرط رسوخ الاعتقاد، سلامته مما يشكك في يقينيته، إذ العقائد لا تكون إلا يقينا، وما كان غير ذلك فمطروح ومردود، ويقينية العقائد مبناها البراهين والأدلة، فلا يتصور وجود عقائد خالية من ذلك، لأنها في الأخير تبقى مجرد أوهام باطلة.

فالعقيدة إذا مجموعة من قضايا الحق المسلمة بالسمع والعقل والفطرة ويعقد الإنسان عليها قلبه ويثني عليها صدره جازما بصحتها قاطعا بوجودها وثبوتها.[4]

فهي مسلمة بالسمع، لأنها تعلم بالنظر والاستدلال، ومعنى ذلك أن معرفة الأدلة الموصلة إلى كونها مسلمة قد بلغت مبلغ القطع، وبالتالي يستحيل على العقل ردها، وهي مسلمة لنا نحن المسلمين، لكن ليست مسلمة لغير المسلمين لعدم تصديقهم بها، ولو صدقوا بها لأصبحت عندهم مسلمة أيضا، وهذا ما يخشاه أرباب الدين عندهم، فيضعون من الحواجز ما يمنعون به على العقل المسيحي أو اليهودي أو الوثني من البحث الحر الخالي من المعوقات.

وهي مسلمة بالعقل، لأن العقل يحيل وجود أدلة تخالف المسلم به نقلا، ولهذا السبب بالذات نشأ في تراثنا العقدي البحث العميق في موافقة العقل للنقل، فيصبح بذلك مخالفة العقل للنقل مسألة نشاز.

فإما أن ينسب عيب المخالفة للنقل وهذا محال، لأن النقل مصدره خالق هذا العالم، أو ينسب عيب المخالفة للعقل، وهذا هو الأقرب للتصديق، لقصور العقل وعدم بلوغه درجة الكمال المطلق، فالكمال المطلق هو لازم لربوبية الله عز وجل فقط.

وهي مسلمة بالفطرة، إذ الخلائق تشهد كلها و بمحض إرادتها وتصرفها بأن هناك قوة خفية تتحكم في هذا العالم، ولولا هذه القوة لما كان منتظما على هذه الصورة البديعة التي احتارت لها العقول، فالمعرفة العقدية الأولى غريزية مركوزة في النفس البشرية، و أن البشر فقط هم من غير هذه الفطرة بسلوكاتهم المنحرفة وبتقاليدهم الباطلة.

ويقتضي اليقين بهذا الأمر الاعتقاد بأنه لا يوجد اختلاف أو تضاد بين آيات القرآن في ذاتها كما لا يوجد اختلاف بين الأخبار النبوية، ثم إنه لا يوجد كذلك

ـ اختلاف بين أحدهما مع الآخر[5]، بل الجميع جار على مهيع واحد ومنتظم في معنى واحد.[6]

فالأخبار الدالة على العقيدة مصدرها واحد، هو الشارع الحكيم، فهو منزل الوحي والباعث لمحمد نبيا ورسولا، فلا يمكن تصور الخلاف مع واحدية المصدر، كما أن القرآن الذي هو أعظم كتاب في هذا العالم، أعجز الإنسان بأقصر سورة فيه، وما كان معجزا لا يمكن أيضا تصور الخلاف فيه، لأن ما كان معجزا فهو فوق مستوى النظر العقلي، وبالتالي فإن طرح موضوع الخلاف بين آيات القرآن من جهة وبين القرآن والسنة النبوية الشريفة من جهة أخرى هو مصادرة عن المطلوب.

ومن هذا المنطلق نتحدث عن العقيدة والنص.

ثانيا: العقيدة والنص

عندما أتحدث عن النص أقصد به الوحي سواء أكان قرآنا أو سنة، وإن هذا الوحي المصدر الحصري والمعرفي للعقيدة، وهي ميزة الإسلام عن باقي الأديان، وأن الوحي هو مصدر الأحكام و منشؤها، فأحكام الاعتقاد منشؤها الوحي دون سواه

وقد اتفق أهل الإسلام أن الدين تكون معرفته على ثلاثة أقسام، وما يهمنا هنا هو القسم الأول والثاني.

فأولها: معرفة خاصة الإيمان والإسلام وذلك بمعرفة التوحيد والإخلاص، ولا يوصل إلى علم ذلك إلا النبي ﷺ، فهو المؤدي عن الله والمبين لمراده وبما في القرآن من الأمر بالاعتبار في خلق الله بالدلائل من آثار صنعته في بريته على توحيده وأزليته سبحانه والتصديق بكل ما في القرآن وبملائكة الله وكتبه ورسله.

وثانيها: معرفة مخرج خبر الدين وشرائعه وذلك بمعرفة النبي ﷺ الذي شرع الله الدين على لسانه ويده.[7]

وفي ذلك رد صريح على طائفة القرآنيين الذين يرون الاكتفاء بالقرآن دون السنة المطهرة، وعلى بعض دعاة فصل السنة عن القرآن الكريم من مريدي فلسفة الحداثة المعاصرين، الذين ما فتئوا يبحثون عن مثالب يلصقوها بالإسلام، تارة باسم التقدم والحضارة وتارة باسم حرية الرأي والتفكير.

فالمسلك الصحيح لفهم كتابه عزوجل إتباع نبيه ﷺ، وأي ادعاء خارج هذا المنهج لا يوصل إلى أي نتيجة.

إن القرآن الكريم هو النور الإلهي والهدى الرباني والقانون السماوي والمعجزة الكبرى والحجة الدامغة والحكمة البالغة والموعظة الحسنة والرحمة المهداة والنعمة المسداة.

قال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ ﴾[8]

وإنه الكتاب الجامع لأسمى المبادئ وأقوى المناهج وخير النظم والحافل بكل ما يحتاج إليه البشر، فهو يشرح للناس العقيدة الحقة ويبين ما لله من صفات الكمال ونعوت الجلال ومظاهر عظمته وأدلة قدسيته وشمول علمه وتفرده بالخلق والإبداع.[9]

فكتاب الله عز وجل هو الشاهد على عظمة هذا الدين وهو الدال عليه، وهو الضامن للباحث من الوقوع في المزالق الفكرية، و لهذا كان الخطاب القرآني واضحا وصريحا في الرجوع إلى الله ورسوله عند الاختلاف.

والسنة تطلق على عدة معاني وكلها دالة على أنها السبيل للمعرفة العقدية، فهي تطلق على الطريقة المسلوكة في الدين، و هي ما يقابل البدعة ويراد بها أيضا الأفعال العبادية التي فعلها رسول الله ﷺ وأفعاله وتقريراته التي صدرت منه على وجه التبليغ بصفته رسولا يجب إتباعه والإقتداء به .(10)

فتلمس سيرة النبي ﷺ وتتبع جزئياتها وخاصة فيما تعلق منها بالاعتقاد، يكشف بالضرورة عن الفهم الصافي والصحيح لمقتضيات العقيدة دونما وجل أو جدل، وخاصة في تنزيل العقيدة كسلوك بين الناس، فلا تقتصر القدوة على مجاراة السنن وإنما تتعداها إلى السلوك الذي كان يطبع حياة النبي ﷺ، والذي كان يترجم العقيدة الإسلامية الصحيحة.

ويمكن القول أيضا بأن القرآن يخاطب الناس من منطلق أن الإيمان بوجود إله قوي قادر يلجأ إليه، أمر مركوز في فطرة الإنسان، وأن ذلك يعود إلى الميثاق الذي قطعه الإنسان على نفسه، و على أن فكرة وجود الإله أمر موجود في الذهن ولذلك يخاطبه بلغة التقرير ثم يردفه بالصفات التي تليق به سبحانه.(11)

إن الخطاب القرآني العقدي هو خطاب تقريري، ينصرف إلى ذكر الأمور التي يجب على المسلم اعتقادها، وكونه تقريريا لأن المعرفة العقدية الأولية فطرية في الإنسان، لكن عندما يقرأ الإنسان ما قرره القرآن من عقائد يقرؤه بعقله، حتى يقتنع بما هو مقرر سابقا.

فدعا القرآن في أكثر من موضع إلى التدبر والنظر للاقتناع بما يدعوهم إليه من عقائد حتى يكون إيمانهم مبنيا عل القطع واليقين.

فالقرآن يقرر العقائد بالنص وبأسلوب معجز في بيانه وبلغة يفهمها كل حسب طاقته وعلمه، ولعمري هذه صورة من صور الإعجاز، ووفق هذا المنهج سار القرآن في رسم أصول الاعتقاد.

وبتغليب النظر وفق هذا المنهج تشكلت مدرسة أهل الحديث، وقد بدأ التأسيس لهذه المدرسة العظيمة القدر رواة السنة من الصحابة والتابعين وهم معروفون في أمصار الإسلام، منه من بالحجاز والبصرة وبالكوفة ثم بالشام ومصر، وقد كانوا مشهورين في عصورهم،وكانت طريقة الحجاز في الأسانيد أعلى وأمتن في الصحة بتجافيهم عن قبول المستورين المجهولة أحوالهم، وسيد الطريقة الحجازية بعد السلف الإمام مالك عالم المدينة ﵁ ثم أصحابه مثل محمد بن إدريس الشافعي ﵁ وابن وهب وابن بكر و القعنبي ومحمد بن الحسن ومن بعدهم الإمام أحمد بن حنبل ﵁ .(12)

وكان المتقدمون يطلقون مصطلح أهل الحديث على المدرسة التي تقابل أهل الكلام.

ثالثا: العقيدة والعقل

الأدلة ما أوصلت إلى العلم بالمدلول عليه والدليل معلوم بالعقل، والمدلول عليه معلوم بالدليل، فيكون العقل موصلا إلى الدليل وليس بدليل، لأن العقل أصل كل معلوم من دليل ومدلول عليه، ولذلك سمي (أم العلم) فصار العقل مستدلا وإن لم يكن دليلا .(13)

ومعنى ذلك أن العقل كاشف عن الدليل موضح له، ذلك أن العقل ليس منشئا للأحكام الإعتقادية.

ومعنى العقل هنا لا يلزم أن يكون الجوهر الممايز للبدن كما ذهب إليه الحكماء وبعض المتكلمين وإنما يكفي أن نلاحظ الناحية الوظيفية للعقل، وعلى هذا الأساس يمكننا أن نقول: ليس في الإسلام ما يناقض العقل، ليس لأن العقل حكم، ولكن لأن الإسلام جاء من أجل الإنسان، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ (14).

فهو ليس تحديا للإنسان وإنما هداية ورحمة ومن هنا كان قوله تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَا ﴾ (15).

وليس معنى هذا أن العقائد ينبغي أن تثبت بالعقل، وإنما يكفي ألا تكون متناقضة معه، ليتقبلها، يكفي أن تكون ممكنة بالإمكان العام، ولعل هذا المعنى هو الذي يقصد إليه ابن السمعاني حين يقول (ليس بالعقل نعرف الله، ولكن مع العقل نعرفه). (16)

فمع العقل نعرف الله ونعرف العقائد التي قررها في كتابه الكريم، فالعقل بهذا المعنى يكشف عما هو موجود، لا كما فعلت الفلسفات العقلية المحضة عندما سلكت مسالك البحث عن الحقيقة، فوصلت ما وصلت إليه من مذاهب و أفكار عجزت عقولهم عن اعتقاد صوابها، فناقض بعضهم بعضا، و أصبح كل حزب بما لديهم فرحون وفق التعبير القرآني.

وتأسيسا على ما سبق فإن الأحكام الإعتقادية خارجة عن دائرة المستحيلات العقلية وداخلة في باب الجواز العقلي، فلا تكليف لمن لا عقل له ولا تكليف إلا بمقدور، وفي ذلك رد صريح على العقائد اليهودية والنصرانية فهي

عقائد غير معقولة بالأساس، تحكمها العاطفة والهوى ولو وضعت في ميزان العقل لتهاوت كما يهوى جبل الثلج بعد طلوع الشمس.

ومنتهى القول في مدركات العقل أنه يحيط علما بالأسباب التي هي طبيعية ظاهرة، ويقع في مداركها على نظام وترتيب، وإذا تجاوزت الأسباب نطاق الطبيعة، فإن العقل لا يمتلك القدرة عن كشف الأسباب،فلعل الأسباب إذا تجاوزت في الارتقاء نطاق إدراكنا ووجودنا خرجت عن أن تكون مدركة فيظل العقل في بيداء الأوهام فيحار وينقطع.(17)

وحتى لا يظل العقل في بيداء الأوهام، عليه أن يسترشد بنور الشرع، فلولا الشرع ما عرفنا الدين، ولولاه ما عرفنا كيف نتعبد الله بشرعه، فالتقيد بالشرع لا يقتصر فقط على البحث العقدي، و إنما يتعداه إلى حياة الإنسان كلها، من مولده إلى وفاته، لأن الشرع هو نظام الحياة الذي شرفنا الله به.

وفي مطابقة الشرع للعقل ومؤاخاة العلم للدين، قال أحد الحكماء: العقل حجة الله البالغة القاطعة وأصل براهينه الساطعة، وإلى من خصه به أرسل رسله، ثم العقل جوز إرسال الرسل ... والنقل لا يأتي بما يناقض العقل وإنما يرد بما يزكي قضاءه ويصقل مرائي أحكامه أحسن صقل، ونظير ما حصل للشرع من الاستئناس، ما حصل للكتاب من معاضدة السنة والإجماع والقياس، ولو ورد المنقول بما يناقض المعقول لأشبه فرعا ما له من أصول، إذا أقبلت مواكب الأوامر الإلهية على لسان الرسول، خضعت جماجم العقول منقادة، أمام الانقياد والقبول، سامعة لما يرد منها مطيعة لما يصدر عنها، فتارة يظهر للعقل ما للأوامر الشرعية من الحكم كنار على علم وتارة يعجز عن الإطلاع على ما تضمنته الأحكام النقلية من الحكم، فإذا ورد الشرع بحكم وكان للعقل في حكمته إدراك، آثره وأكده

واستمسك في تصرفاته أقوى استمساك، وإن لم يكن في إدراكه مدخل، نادى بلسان العجز والتسليم سبحان من لايسأل عما يفعل.[18]

إذا فدور العقل هو فهم النص العقدي وتفسيره والمحاجة على صوابه وإقناع الغير به والدفاع عن الشبه الواردة عليه من المنحرفين في الاعتقاد دفاعا عن عقائد المسلمين.

وقد اعتراف علماء المسلمين من مختلف المدارس بصحة الاستدلالات العقلية وقطعيتها. وسلامتها من العيوب إذا تم تخليص النفس من الهوى والأوهام واعترف بقصور العقل في إدراك الحقيقة العقدية التي هي من اختصاص الشارع الحكيم.

ومن تغليب النظر وفق هذا المنهج نشأت مدرسة المتكلمين، حيث قام الإمام أبو الحسن الأشعري إمام المتكلمين فتوسط بين الطرق ونفى التشبيه، ثم جاء بعده أبو بكر الباقلاني فتصدر الإمامة في طريقهم وهذبها ووضع المقدمات العقلية التي تتوقف عليها الأدلة والأنظار، ثم جاء بعده من أئمة الأشعرية إمام الحرمين أبو المعالي الجويني، فأملى في الطريقة كتابه الشامل وأوسع القول فيه ثم لخصه في كتاب الإرشاد واتخذه الناس إماما لعقائدهم.[19]

وتسمى هذه الطريقة بطريقة المتقدمين ثم جاء المتأخرون فيما بعد كحجة الإسلام الغزالي والإمام فخر الدين الرازي والبيضاوي وغيرهم من أساطير علماء الكلام وانتهاء بـ:" العبقري المحيّر عبد الرحمن بن خلدون حسب تعبير جاك بيرك حيث حظي بمكانة مرموقة شرقا وغربا لما يحظ بها مفكر إسلامي غيره، ونال قسطا من العناية والتكريم والتبجيل فضلا عن الإنتاج المعرفي الزاخر الذي شكل حقلا كثيفا مكونه غابة من الدراسات الخلدونية.[20]

رابعا :العقيدة والقلب

قال ابن عطاء الله السكندري في الحكمة السادسة والعشرين من حكمه بـــ:

[من علامات النجح في النهايات الرجوع إلى الله في البدايات].

وفي شرح هذه الحكمة قال ابن عباد النفزي: للمريد بداية ونهاية، فبدايته حال سلوكه ونهايته حال وصوله، فمن صحح بدايته بالرجوع إلى الله، والتوكل عليه والاستعانة به، كما ذكرنا، أفلح وأنجح في نهايته، وكان وصوله إلى الله تعالى فأمن عليه من الرجوع والانقطاع.

قال بعض العلماء: من ظن أنه يصل إلى الله تعالى بغير الله قطع به، ومن استعان على عبادة الله بنفسه وكلّ إلى نفسه، فعلى العبد السالك أن يجعل معتمد أمره الاستعانة بالله تعالى على ما هو سبيله ولا يرى حولا لنفسه ولا قوتها في كثير من عمله ولا قليلة، فهذا هو أساس السلوك الذي يبنى عليه قواعده(21).

هذا السلوك الذي يتجه ابتداء إلى الانقطاع إلى الله تعالى، والإعراض عما في هذه الدنيا من مغريات، والزهد فيما يشغل به عامة الناس حياتهم من ملذات ومن جاه ومال وقد يكون في غالب الأحيان خلوة ربانية في حياة تذوب فيها النفس بالمجاهدة حتى تصير مقاما لذلك العابد، ولا يعني ذلك على الإطلاق هذا السلوك خارج نطاق الفقه الذي يعتبر ناظما لهذا السلوك أو بمنأى عن قواعد الاعتقاد الصحيحة التي تعتبر مرجعا له.

ومدرسة التصوف أو الصوفيون بالأحرى، عاشوا العصر الذي ضم مختلف الاتجاهات الفكرية، وعرفوا موقفها من قضايا العقيدة ولأن العقيدة أساس لا يستغني عنه مؤمن، فقد كان للصوفية فيه كلام في قضايا العقيدة وأنه غلب الطابع العملي في حياتهم العامة.(22)

إذا المنهج الصوفي هو منهج عملي بالأساس، ويبتعد نوعا ما عن مناهج الاستدلال العقدي وتقرير مسائل الجدل.

فمجمل ما يتميز به الصوفية في منهجهم أنهم انطلقوا من متطلبات إيمانية وتغيوا غايات عملية في بحثهم لأمور العقيدة، ولعل هذا المنحى هو الذي جعل إجاباتهم على الأسئلة العقدية تأتي موجزة موصية بالعمل فمثلا يسأل الحفيد (من صوفية القرن الثالث الهجري) عن التوحيد ماهو؟

فيجبيه الجنيد بن محمد البغدادي، التوحيد هو اليقين) ويسأل عن اليقين ماهو؟ فيقول: هو معرفتك أن حركات الخلق وسكونهم فعل الله عزوجل وحده لا شريك له، فإذا فعلت ذلك فقد وحدته(23).

خاتمة :

1/ المشكلة :

لا يزال البعض قديما وحديثا يعتقد بأن الخلاف الحاصل بين هذه المدارس الثلاث العظيمة في أصول الإيمان كما هي منصوص عليها في الكتاب والسنة، هو خلاف تضاد.

كما لا يزال البعض يعتقد بأنه سيأتي يوم من الأيام يمكن أن يحسم في هذا الخلاف لطرف أو لآخر، فيحسم مثلا لمدرسة أهل الحديث لتوضع مدرسة المتكلمين في المتحف أو يحسم الخلاف لمدرسة التصوف لتوضع المدرستين الأخريين خارج حركة التاريخ.

إن الخلاف كان قائما حقيقة ومنذ بواكيره الأولى، لكن الملاحظ من خلال القراءة الواعية لتاريخ الفكر العقدي أنه لم يكن يشكل إطلاقا سببا للإزعاج وخاصة إذا بقي على مستوى النخبة من العلماء.

وإن ما حصل من تجادل أو تدافع، مرده الأتباع الذين هولوا الأمور وأخرجوها عن الدائرة التي كان من المفروض أن يبقى فيها الخلاف، فشاعت الفتن وبدأ المسلمون يأكل أعراض بعضهم البعض ووصل الأمر هم حد المخاصمة والهجران.

فالمؤكد أن حضارة الإسلام لم تقف على قائم واحد، ولو كان الأمر كذلك لسقطت في بداية البناء لكن العارف الحصيف يدرك تمام الإدراك أنها قامت على قوائم متعددة وقامات هامات في العقل والتفكير وحسن التدبير، وقد ضمن صيرورة ذلك أن دولة الإسلام كانت قوية ومهابة الجانب.

وعودا على بدء أقول بأن الخلاف بين هذه المدارس الثلاث لم يكن في مصادر المعرفة، فكلهم ينهل من القرآن والسنة. ولم يكن في أصول العقائد، ولو كان الأمر كذلك لكان هذا كفر وهذا إيمان.، وإنما الخلاف كان في طرق المعرفة، فلقد كان الأمر هكذا لما كانت دولة الإسلام قائمة، أما وأن هذه الدولة والأمة تبحث عمن يلمّم جراحها فإن هذا الخلاف لن يزيد الأمر إلا فرقة وتمزقا وضعفا.

2/فما الحل؟

إن عقيدة التوحيد، الأصل فيها أنها عقيدة تجمع ولا تفرق وتنأى بنفسها أن تكون سببا للخصام، ولما كان الخلاف المذكور بين هذه المدارس في طرق المعرفة وحال أمتنا اليوم من الضعف والهوان ما يندى له الجبين، فالحل أن نلجأ إلى التكامل المعرفي بين هذه المدارس الثلاث، وقد اهتدى القائمون على المعهد العالمي

للفكر الإسلامي بواشنطن إلى هذه المنهجية في التفكير لتجاوز الترهل الذي أصاب العقل المسلم على مستوى الإبداع في العلوم التي كانت سببا في تطور العالم الغربي إلى المستوى الذي صار من خلال يتحكم في رقاب المسلمين.

فهم بحثوا في التكامل المعرفي بين العلوم الإسلامية والعلوم الإنسانية والاجتماعية التي وصل إليها العقل الغربي، واقتباسا من منهجهم الوهاج يمكن توظيف التكامل المعرفي بين هذه المدارس ليصل إلى التوافق المرجو الذي يساهم بشكل كبير في وحدة الأمة وقوتها.

ويمثل للتكامل المعرفي هنا، بما قام ابن رشد من إمكانية الاتصال بين الحكمة والشريعة، وأكد ابن تيمية على التكامل، ودرء التعارض بين صحيح المنقول وصريح المعقول، وجمع القشيري وغيره من المتصوفة بين الطريقة والحقيقة(24)، فقضية التكامل المعرفي بين المدارس الثلاث في نظري هي قضية فكرية منهجية تتغيا المحافظة على وحدة العلوم والمعارف بحكم ارتباطها جميعا بمصدرها الواحد وهو الله سبحانه وتعالى، سواء أأوحى الله بها للإنسان بأساليب الوحي المعروفة أو يسر للإنسان اكتشافها بأساليب البحث والسعي والنظر.

وعلى هذا الأساس يمكن السير في اتجاهين لتحقيق هذا التكامل المعرفي اتجاه نظري واتجاه عملي، فالاتجاه النظري يبحث في المختلف فيه ليركنه جانبا ثم يقوم بصياغة معرفية للمتفق عليه، والذي يشكل بدون شك أكثر من 90 % من المنظومة المعرفية لهذه المدارس، إن هذه النسبة المرتفعة بإمكانها أن تكون أساسا لانطلاقة حضارية متميزة تشكل فتحا جديدا لما تم غلقه بأوهام الجهل.

والاتجاه العملي يبحث في الجانب السلوكي الذي يرقى بـأخلاق المسـلم الصادق إلى مستوى قبول الآخر دون تعصب أو إقصاء ويترل بـه إلى مسـتوى التكافل والتعاون الذي به وفقط يمكن أن يواجه هذه الفترة التاريخية غير العاديـة والمليئة بالمخاطر التي يصعب التنبؤ بما تنتهي إليه.

وأختم مقالي بقول رسول الله ﷺ :" يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالبين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين(25) .

الهوامش

1-محمد الغزالي ، عقيدة المسلم،ط/6 دار القلم دمشق سنة 1987 ص5

2- سورة النساء الآية 33، سورة المائدة الآية 89، سورة البقرة الآية 235 و237، سورة طه الآية 25-26، سورة الفلق الآية4.

3- د/أحمد عبد الرحيم السايح، علم العقيدة بين الأصالة والمعاصرة ط/1 دار الطباعة المحمدية القاهرة سنة 1990

4- نفس المرجع السابق ص 9

5- د/ عبد الحميد مدكور، الأصول الإعتقادية في فكر الإمام الشاطبي، مجلة المسلم المعاصر عدد 113 سنة2004 ص29

6- الشاطبي الموافقات، تحقيق الدكتور عبد الله دراز طبعة المكتبة التجارية القاهرة ج4 ص 294

7- ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله، دار الفتح القاهرة ج/1 ص 39-40

8- سورة الشعراء الآية 192-195

9- سيد سابق، دعوة الإسلام، ط/1 دار الكتاب العربي بيروت سنة 1973 ص234

10- نفس المرجع السابق، ص 257- 258

11- د/ أبو اليزيد أبو زيد العجمي، فقه العقيدة عند الشافعي وأحمد، الموقف والمنهاج،ط/1 دار الصحوة للنشر والتوزيع القاهرة سنة 1987 ص65-66

12- ابن خلدون، المقدمة، المؤسسة الوطنية لكتاب الجزائر ج2 سنة 1984 ص536

13- جمال الدين القاسمي، دلائل التوحيد ط/1 مطبعة المدني القاهرة سنة 1986 ص 18

14- سورة الأنبياء الآية 107.

15- سورة البقرة الآية 286
16- د/ يحي هاشم فرغل، الأسس المنهجية لبناء العقيدة الإسلامية، دار الفكر العربي القاهرة ص393-394
17- د/ محمد زاهد جول، علم الكلام الخلدوني،مجلة إسلامية المعرفة عدد51 سنة 2008 ص113
18- دلائل التوحيد مرجع سابق ص 136
19- مقدمة ابن خلدون مرجع سابق ص 565-566
20- علم الكلام الخلدوني مرجع سابق ص93
21- ابن عطاء الله السكندري، الحكم العطائية شرح/ ابن عباد النفزي ط/1 مركز الأهرام القاهرة سنة 1988 ص151
22- فقه العقيدة عند الشافعي واحمد مرجع سابق ص88
23- القشيري، الرسالة القشيرية ص 5
24- د/ فتحي حسن الملكاوي، مفاهيم في التكامل المعرفي مقال نشر على الموقع الإلكتروني: www .arabic center /net
25- الحديث رواه البيهقي، قال عنه الألباني في مشكاة المصابيح 53/1 صحيح.